تجديد اللغة

بين

حزم الآباء وتفريط الأبناء

إعـــــــداد

أ.د/ صلاح الدين محمد احمد غراب

أستاذ البلاغة والنقد المتفرغ بكلية الدراسات

الإسلامية والعربية للبنين بالديدامون – شرقية

تجديد اللغة بين حزم الآباء وتفريط الأبناء

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ وعلي آله وأصحابه أجمعين وبعدُ:-

تدور مادة – جَدّ – حول الأصل والخط والرزق والطريق والبئر – وجد الثوب والشئ – يجد صار جديداً وهو نقيض الخَلَقَ – وتجدد الشئ صار جديداً والأجدان والجديدان – الليل والنهار – والجد نقيض الهزل ، وأمر جد أي محقق - والجد الاجتهاد في الأمور والخلق الجديد – النشأة الثانية – بل هم في لبس من خلق جديد – والجَدُّ . الفيض الإلهي قال تعالي :" وأنه تعالي جد ربنا ....." ينظر لسان العرب والمفردات .

فمن واقع معاني هذه المادة ندرك أنها تدور حول الأصل ، والرزق والطريق والزمن والتحقيق ، والنشأة الثانية وكلها بلا شك من معالم الفيض الإلهي الذي يزجيه سبحانه وتعالي إلى خلقه في الدنيا والآخرة ، ولذلك كان التجديد سنة من سنن الله تعالي في مخلوقاته الإنسانية والحيوانية والنباتية ، وهو كذلك في عالم الأفكار والمعقولات ، وهي أمور يبديها ولا يبتديها ، كما قال تعالي" كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٍ ". سورة الرحمن رقم ٢٩ .

فإذا كان الأمر كذلك في الكون الذي نعيش فيه ، ونحنُ جزء منه فما ينبغي لنا أن نعيش فيه جامدين ، وكيف نكون كذلك والله أمرنا بتحريره

وتعميره ، قال تعالي " هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا " سورة هود رقم ٦١ .

فإذا كنا مطالبين بالتعمير والتجديد في الفكر والثقافة وكافة العلوم لأنها عقل الإنسان وميزان حياته في كل زمان ومكان ، وهي المؤشر الحي على الرقي الحضاري والعلامة المميزة على جدية الإنسان وتفاعله مع واقع الحياة التي تتطلب منه الحركة والتقدم إلى ما هو أفضل دائماً وفي سبيل ذلك يخلع ربقة التقليد والجمود ويحطم شعار " لم يترك الأول للآخر شيئاً " .

ومن أجل ذلك فإن التجديد الذي ننشده هو العودة إلى المنابع والجذور التراثية النقية بعقلية المعاصر الذي لا يذوب في الماضي ولا ينخلع من المعاصرة ، ولكن يذوب الماضي في عقله ، ويأخذ منه النور الذي يهديه إلى تفهم الواقع المعاصر ، فيأخذ منه بالقدر الذي يتفق مع هويته العربية والإسلامية بغية العصمة من الخطأ والزلل في تلك التيارات المتماوجة في الشرق والغرب على السواء ،والتي تتصارع من أجل الهيمنة والبقاء .

ومن المعلوم أن التجديد له ميادين كثيرة في العلوم اللغوية ، والعلوم الشرعية ، والفكر الإنساني بوجهٍ عام ، ولكننا معنيون – هنا – بالإشارة إلى طريق التجديد في لغتنا العربية التي تقول :-

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

إن آباءنا قد عرفوا قيمة الكلمة البليغة بوجهٍ عام ، وقيمة البيان بوجهٍ خاصٍ من مقتضي كلام ربهم قال تعالي :" ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ " سور الرحمن١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

ومن ثم كانت بضاعتهم المزجاة التي يحتفلون بها في الأسواق ويقيمون لها النقاد ، كان الزهو والفخار لمن يحكم له بالتفوق والاقتدار ، وكان الغيط والانكسار لمن يرمي بالتراجع والانحسار ، والتاريخ الأدبي حافل بكل هذه المعالم – سوق عكاظ وذي المجاز ، والنابغة والأعشى والخنساء وحسان وغيرهم كثير .

وقد زادت قيمة الكلمة وظهر أثرها وخطرها بنزول القرآن الكريم بما فاجأهم به من نظم معجز في ألفاظه ومعانيه وطالبهم بمثله فانقطعوا ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، ومن هنا كان للتحدي معناه – والذي دلل على أن هذا الجيل الذي نزل فيه القرآن قد بلغ شأوا عظيماً في الفصاحة والبيان على وجه لم يسبق إليه ، ومن هنا كان تعظيمهم للكلمة والبيان ، وقد سري هذا التعظيم إلى الأجيال اللاحقة بل كان جزءاً من الدين الذي يدين به الإنسان ، وكيف لا تكون كذلك ، وقد قال النبي ﷺ لرجل يلحن " أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل فالإعراب رشد واللحن ضلال " ، وقال عمر بن الخطاب ﷺ تعلموا العربية كما تتعلمون حفظ القرآن ـ تعلموا العربية فإنها من الدين ، وكتب إلى أبي موسي الأشعري " تفقهوا في السنة ، وتفقهوا في العربية "، فتعلم العربية دين يوازي حفظ القرآن الكريم ، والتفقه في السنة الشريفة المطهرة ، ولذلك لم يكن غريباً أن يقول ابن تيمية –رحمه الله تعالي – تعلم العربية

واجب لأن القرآن والسنة لا يفهمان إلا بالعربية وفهمهما واجب ، وما لا يتم الواجب إلا به فهوا واجب .

وقد ظلت الأجيال تسير على هذا السنن الواضح ، تذوب حباً في خدمة العربية ، وتنطلق شوقاً إلى معرفة إسلامها قرآناً وسنة ، وتتذوق شعر شعرائها لتقف على ما فيه من معاني ومبان فتزداد ثراء في الفكر وجمالاً في التصوير ، وقوة في التعبير ، ومعرفة بخصائص التراكيب ، وكان من أثر ذلك تلك المؤلفات العربية والعلمية والتي حوت الكثير والكثير من خصائص العربية وموازينها وضوابطها الراسية مثل الكتاب لسيبويه ، والبيان والتبين للجاحظ ، والكامل للمبرد ، وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، والكشاف للزمخشري ، وغيرها كثير في القديم والحديث إن هؤلاء الأجيال قد اعتبروا أن البيان نعمة من الله عز وجل واجب شكرها ، وقد شكروها بالقول والفعل ، ولذلك قال العلامة محمود شاكر " فمن استهان بالكلمة فقد استهان بأفضل آلاء الله على عباده ، وبالنعمة الكبرى التي أخرجته من حد البهيمة العجماء إلى حد الإنسان الناطق ....؛"

وإن الحضارة كلها والثقافة كلها بعلومها وآدابها وفلسفتها عالة على الكلمة ، فلولا الكلمة لما كان لشئ من ذلك كله وجود يعقل (ينظر أباطيل وأسحار ص ٥٦٢) .

وظلت الكلمة بسحرها وجمالها وافتتان الشادين بها موضع أمانة وتقديس بلغ حد الفرضية في الدين ، كما ظلت الأجواء العربية والإسلامية يتعطر شذاها بالبيان الحي المؤسس على لغة القرآن والحديث ومنظوم العرب شعراً ونثراً وسارت القافلة اللغوية والبيانية تحمل رسالة البيان

بأمانة وصدق في دور العبادة ومجالس العلم والأدب ومؤسسات التعليم ، بل كان الخلفاء يرصدون الجوائز النفيسة للمبدعين من الشعراء والأدباء والعلماء ، وامتدت هذه الحركة العلمية الثرية ، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها ، وأنارت عواصم العالم العربي والإسلامي (بغداد ، دمشق ، مصر ، الأندلس) وسرى هذا النور إلى كل بقعة وصل إليها الفاتحون .

وما أن اختلط العرب بالأعاجم ، وحدث ما حدث من التأثر والتأثير في اللسان العربي "۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا (مريم – ٥٩) وأمام هذا المد الأعجمي اللغوي لم يجد العلماء والأدباء أمامهم إلا العكوف على التراث العربي والإسلامي فقد استوعبوه بل استوعبوا كل التراث المتاح لهم آنذاك ، فلم يرفضوا تراث تلك الأمم الأعجمية جملة بل كان منهجهم هو القراءة والاستيعاب والهضم وإخضاع ذاك كله لموازين العربية وذوقها في فنونها المختلفة ـ وتلك هي النظرة الموضوعية والحيادية لتراث الأمم ، فالإطلاع على هذا التراث واجب تمشياً مع العصر ومقتضيات التقدم والرقي ، والقبول المطلق أو الرفض المطلق لا يجوز وإنما الأخذ بالقدر الذي يعنينا في مسيرتنا اللغوية والبيانية .

والكتاب لسيبويه يمثل لنا الواجهة الحضارية للغة في نحوها وصرفها وبلاغتها وصوتياتها ، والنحو عند سيبويه كما هو عند عبدالقاهر طريقة من طرق التفكير وتوصيل المعاني بدقة واستيعاب ، وتمثيل لخصائص التراكيب وتربية واقعية للقدرة على التعامل مع المقامات المختلفة

، قال عنه الشيخ محمود شاكر " وعلمني كتاب سيبويه يومئذٍ أن اللغة هي الوجه الآخر للرياضيات العليا "

ومن يومئذٍ صارت الكلمة عندي هي الحياة نفسها هي نفسي ، هي عقلي ، هي فكري ، هي سر وجودي ، ووجود ما حولي . (السابق ص ٥٥٩) .

إن كتاب سيبويه هو القديم والجديد والأصيل والمعاصر ، وتجديده هو تقديمه لأبناء العربية ، ومسح غبار النسيان الذي شمله ، ود حض أصوات الناعقين والمتعالمين الجهلاء الذين يودون حرق نحو سيبويه وخصائص ابن جنى ، والتهكم على عروض الخليل بدعوى الحرية الفوضوية الخلاقة كما يزعمون .

تأمل كلام ابن جني "ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب،فإذا قلت طاب الخُشْكُنان يقابله البسكويت" فهذا من كلام العرب لأنك بإعرابك إياه قد أدخلته كلام العرب [١]

هذه هي النظرة العلمية الموضوعية التي يقوم عليها التجديد ، وهي الأخذ بقدر والرفض بحذر ، وناهيك بعد ذلك عما كتبه عبدالقاهر في كتابه " أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز " وما سطره فيهما من دقائق ورقائق في مجال النظم ومعالم التصوير وما أسسه من وجوب النظر إلى كل مكونات التعبير من الحروف والكلمات والجمل والروابط الذاتية ، والروابط بحروف المعاني ، واستثمار ذلك في التعرف على المعاني ودلالات التراكيب التي أودعها المبدع في صنعته .

---

[١]) ينظر الخصائص ج١ص ٣٥٨

ولو ناظرنا ذلك بما وصلت إليه أرقي النظريات اللسانية والأسلوبية في العصر الحديث لوجدنا أن فكر عبدالقاهر هو السابق والسامق ، وإن كان هناك من خلاف فهو في المصطلحات ، وليس في المضمون ، تأمل هذه المصطلحات بين العربية وغيرها :-

١- المتكلم والمخاطب ، المرسل والمستقبل أو المتلقي والمبدع .

٢- الدلالة اللغوية والدلالة التركيبية ، البعد الفني والبعد الجمالي ، أو البنية السطحية والبنية العميقة .

٣- ظاهر الحال وخلاف ظاهر الحال ، أفق الانتظار أو اندماج الأفق أو تغيير الأفق .

٤- الالتفات وأسلوب الحكيم والمجازات والكنايات ، الانحراف اللغوي أو الانزياح .

٥- علاقات المجاز المرسل – علاقات التجاور .

٦- علاقات المجاز بالاستعارة – علاقات التبادل .

٧- الجمع بين الأمور المتنافرة أو المتباعدة في التشبيه أو الطباق والمقابلة – الصدمة العطرية [٢].

وغير ذلك مما يطول سرده ،وما علينا من ذم إن استعملنا هذه المصطلحات شريطة أن لا نهمل المصطلحات العربية ،ونحن بصدد التحليل البلاغي الذي يقوم أساساً على محاور ثلاثة – المبدع والنص والمتلقي ، فلا علينا إن استخدمنا المرسل والرسالة والمستقبل وهكذا ،،،،،،،

[٢]) ينظر مراجع الأسلوبية الحديثة

وأما ما ينزع إليه الكثير من أبناء العربية معلمين ومتعلمين ومثقفين وغير مثقفين من عملية الإحلال والتجديد ، والنظر إلى هذا الفكر العربي كالنظر إلى عقار آيل للسقوط يجب أن يهدم ليقام غيره مكانه ، فتلك هي الطامة الكبرى التي لا تبقي ولا تذر شيئاً من تراث العرب وحضارتهم التي أسسوها على مر السنين ، وتعاقب الأجيال ، وقد ظهر ذلك واضحاً في الخطط الاستعمارية في مجال التعليم ، وجعل اللغة الأجنبية لها الصدارة ، والهمز واللمز بأن اللغة العربية لغة التعقيد والجمود وليس من ورائها إبداع ، وزامن ذلك الدعوة إلى العامية مثل " كتاب قواعد اللغة العامية في مصر لسبيتا الألماني سنة ١٨٨٣م ، كما دعا وليام ويلكس ١٩٣٢م في محاضراته إلى العامية ، وعلى نفس الخط كان فولرس ١٩٠٩م ، سلدن ١٩٠١م ، وسلامة موسي ١٩٥٨م ...؛ وكان من أثر ذلك هذا الكم الهائل من الكلمات التي نسمعها والعبارات التي نقرؤها في الحياة العامة أو مكتوبة على المحلات والشركات نقول :-

١- فنقول – ميدالية " Medal" ولا نقول وسام .

٢- فنقول – سيناريو " Scenario " ولا نقول نص سينمائي .

٣- فنقول – ريبورتاج " Reportage " ولا نقول تحقيق صحفي .

٤- فنقول – موتور " Motor " ولا نقول محرك .

٥- فنقول – بنك " Bank " ولا نقول مصرف .

٦- فنقول – ديبرياج " Deprayage " ولا نقول توقيف الحركة .

٧- فنقول – بانسيون " Pansion " ولا نقول نزل .

٨- فنقول – تواليت " Toilet " ولا نقول مرحاض .

٩- فنقول – صالون " Salon " ولا نقول قاعة استقبال .

١٠- فنقول – أرشيف " Archive " ولا نقول سجلات .

١١- فنقول – سيرفيس " Service " ولا نقول خدمة .

١٢- فنقول – كورنر " Corner " ولا نقول زاوية .

١٣- فنقول – أوت " Out " ولا نقول خارج .

١٤- فنقول – فول " Faul " ولا نقول خطأ .

١٥- فنقول – كابتن " Captain " ولا نقول قائد أو زعيم .

١٦- فنقول – جورنال " Jornal" ولا نقول جريدة أو صحيفة

١٧- فنقول – كنترول " Control " ولا نقول لجنة نظام .

وهناك البعض الذي يطلب من مهندس الديكور أن يكتب له عنواناً انجليزياً ، فيكتب له ، وإذا سئل عنه لا يعرف معناه ، فقد سألنا حلاقاً كتب على محله " Golden Finger " أي الأصابع الذهبية ، فقال أسألوا المهندس .....؛ وهكذا زحف المد اللغوي الأجنبي على لغتنا ، وفي عقر ديارنا ، فعلينا أن نثوب إلى رشدنا وأن نفيق من غفوتنا ، وأن نعيد الفكر العربي والتراث الحضاري للأمة العربية والإسلامية ، وأن نأخذ من الثقافات الحديثة ما ينفعنا ويروقنا ، ويجعل لنا مكانة بين الأمم كافة ، وذلك بإتباع الآتي :-

١- تعليم الأطفال منذ نعومة أظفارهم حب التراث العربي ، وتحفيظهم قدراً صالحاً من القرآن والحديث والشعر .

٢- تدريس النحو الوظيفي من خلال النصوص النثرية والشعرية ، بحيث يكون النص الواحد المتخير من النصوص البليغة ، يستظهر منه المعلم النحو والصرف والبلاغة والموسيقي الشعرية .

٣- التركيز على الناحية العلمية في الناحية التعليمية للغة ، بمعني عودة حصص المطالعة والقراءة للطلاب ، يتعلمون القراءة الجهرية الصحيحة ، ويقوم المدرس بالتصحيح للطلاب أثناء القراءة ويعودّ جميع الطلاب على ذلك ، فإن ذلك كفيل بتعليمهم القراءة السليمة وبتنمية فن الأداء عندهم ، فالقراءة الجهرية ، وفن الإلقاء جدير بأن يؤهلهم ذلك إلى ممارسة فنون الإعلام ، ومخاطبة الجماهير بكل فصاحة واقتدار .

٤- تشجيع الطلاب المتخصصين في اللغة والباحثين فيها على استظهار كنوز التراث العربي في كل مجالات اللغة ، وتقديمها للأجيال الناشئة حتى يتم التلاقي والتلاقح بين تراث الأباء وفكر الأبناء.

٥- أن تتضافر كافة الجهود المؤسسية في التربية والتعليم الجامعي وقبل الجامعي وفي الأزهر الجامع والجامعة على خدمة اللغة العربية لغتنا القومية ، وان تكون هناك توصية بان يكون التدريس باللغة العربية الفصحى وبخاصة في التخصصات اللغوية .

هذا وبالله التوفيق

أ.د/ صلاح الدين غراب
أستاذ البلاغة والنقد بالكلية